

جامعة عبد الرحمن ميرة - بجاية.كلية اللغاب والأداب.قسم اللغة العربية وأدابها.

السنة الأولى ل.م.د المجموعة 01

مقباس فقه اللغة العربية

المحاضرة الرابعةجذور اللغة العربية الفصحى في شبه الجزيرة العربية

إنّ بداية اللغة العربية لا زالت مجهولة وذلك لجهلنا بمعالم تاريخ العرب القدامى، وليس في مقدور الباحث اليوم أن يكشف أطوار النشأة الأولى لهذه اللغة، لأن التاريخ لم يسايرها في مرحلة التطور والنماء، وأهم مصدر تاريخي اعتمد عليه هو تلك النقوش والآثار الباقية، ولكنها قصيرة العبارات ومحدودة المعاني، وحين نتحدث عن طفولة اللغة العربية يجدر بنا أن نعطي أولاً لمحة تاريخية عن العرب الأوائل في حقبة زمانية مختلفة.

1- أصل سكان الجزيرة العربية ومنها مكة.

وقبل ذلك نعطي مفهوم كلمة (عرب) التي حاول عدد من الباحثين التوصل إلى معرفة أصلها، وكان اللغويون العرب في طليعة هؤلاء؛ فمنهم من يقول بأن هذه الكلمة - والتي تنسب اللغة العربية - "جاءت نسبة إلى أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب (يعرب بن قحطان)، وهو أبو اليمن وهو أهل العرب العاربة"1 وآخرون يقولون بأن لفظة (عرب) تعود إلى اسم بلدهم الذي يقيمون فيه منذ القديم، وهو عربية حيث نشأ أولاد إسماعيل عليه السلام، وهي من تهامة، وهناك من يقول إن الجزيرة العربية كلها تدعى عربية وبعضهم يخص بها مكة"2، ونقول رجل عربي، إذا كان نسبه في العرب ثابتاً، وإن لم يكن فصيحاً وإن كان عجمي النسب، ورجل أعرابي، إذا كان بدوياً يسكن في البادية. وإذا سألنا من هم العرب؟ نقول أنهم قوم سكنوا شبه الجزيرة العربية منذ القديم وهم أمة من أصل سامي على اختلاف شعوبها وتباين قبائلها نسبة إلى (سام بن نوح)، واختلف النسابون والعلماء، فبعضهم نسب العرب إلى (إرم بن سام)

وآخرون أرجعهم إلى (قحطان بن عامر بن شالخ بن سام) ومن أسباب الخلل في أخبار العرب، تناقل الخبر أجيالا على الألسنة بغير تدوين أو تسجيل أو ضبط وليس من اليسير رسم صورة للحياة السياسية والاجتماعية لشعوب لم تترك سوى النقوش القليلة. وحسب البحوث والدراسات، نجد أن الجزيرة العربية يسكنها عرب من أصل واحد ثم تحضر الذين يسكنون على ضفاف الفرات ووادي النيل، وظل العرب الآخرون تغلب عليهم البداوة، وعاش أكثرهم عيشة قبائل رحل في البوادي لا يستقرون في مكان واحد، ولا يتصلون بالأراضي التي يسكنونها اتصالا وثيقا بل كانوا يتربون مواسم الغيث فيخرجون بكل ما لهم بحثا عن الماء والكأ، وهناك عرب الشمال وعرب الجنوب، ويقول النسابون إن عرب الشمال من نسل (إسماعيل بن إبراهيم) عليهما السلام وعرب الجنوب من نسل (قحطان)، فسمي أهل الشمال بالعدنانيين نسبة إلى عدنان الذين يعيشون حياة بدوية، وسمي أهل الجنوب بالقحطانيين ويعيشون حياة متحضرة إذ كان اليمانيون يتحكمون في التجارة، وبعد انهيار سد مأرب تفرقوا وسقطت اليمن وظهر عرب الحجاز وتفوقوا في جميع الميادين.

كما اختلف المؤرخون في تقسيم طبقات العرب، بحيث نجد (جرجي زيدان) في كتابه (العرب قبل الإسلام) قسمها إلى عرب بائدة وعرب باقية، والباقية هم القحطانيون من حمير في اليمن، والعرب العدنانيون في الحجاز وما يليها. ونجد طبقات العرب في كتاب (دراسات في تاريخ العرب: تاريخ العرب قبل الإسلام) ل (عبد العزيز سالم) طبقتين: عرب بائدة وعرب باقية، والباقية هم عرب عاربة وعرب مستعربة، وهناك من يقسمها إلى طبقتين: القحطانية باليمن والعدنانية بالحجاز، مثل (طه حسين) في كتابه (الأدب الجاهلي)، في حين نجد (ابن خلدون) يقسمها إلى 4 طبقات: العرب العاربة، وهم البائدة، عرب مستعربة وهم القحطانيون، ثم العرب التابعة هم من عدنان والأوس والخزرج، والغساسنة، والمناذرة، ثم عرب مستعجمة وهم غير العرب الذين دخلوا الإسلام.

1- الطبقة الأولى:

ونقصد بهم العرب البائدة، وهم أقدم الطبقات، إذ سمو بذلك لأنهم أبيدوا ولا يعرف عنهم إلا القليل، وذلك حسب ما ذكر في القرآن الكريم، يقال إن العرب البائدة " هم أولاد إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهم عاد وثمود...وحسب روايات مختلفة، فإن سبب انقراض هذه الأقسام هي الكوارث الطبيعية التي اجتاحتهم كالعواصف والبراكين والهزات الأرضية ونذكر من هذه الأقسام:

(عاد): يعتبرون من أقدم العرب البائدة، ولقد ورد في القرآن الكريم أخبار عن عاد ونبئهم هود، وكيف عصوه واستكبروا في الأرض، فعاقبهم عز وجل أشد العقاب "إذ أرسل عليهم ريحا صرصرا وصواعق دمرت مساكنهم، وقضت عليهم وأصبحوا عبدة، لقوله تعالى: "فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أذى وهم لا ينصرون" (فصلت 16)، وهم أولاد عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ومنزلهم الإحفاق بين اليمن وعمان والبحرين إلى حضر موت" كما أخبر بذلك الأستاذ (جرجي زيدان).

(ثمود): وهم قوم النبي صالح بن عبيد بن سام بن نوح الذي دعاهم إلى عبادة الله وحده فخالفوه، وذلك في قوله تعالى: "كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها" فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها" (الشمس 11-15)، إذ عقروا ناقة نبيهم فأهلكهم الله بالصاعقة، وهم قوم عاشوا في المناطق الشمالية الغربية من شبه الجزيرة العربية، وكانت بيوتهم منحوتة في الصخور.

2- الطبقة الثانية:

وهم العرب العاربة، وهم من " ولد بن قحطان بن هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وكان له من الأولاد يعرب وجرهم وعمان، وتزعم العرب أن يعرب أول من تكلم العربية ، وهي مشتقة من اسمه" وهو الذي ملك اليمن واستولى عليها، ونذكر من أقوام هذه الطبقة قوم جرهم لأنهم الذين سكنوا مكة موطن العرب ومنبع حضارتهم، وهم من بني أرفخشذ بن يقطن بن عابر بن شالخ، وكانت ديارهم اليمن، ثم نزلت جرهم الحجاز لأسباب أمنية وطبيعية، وأقاموا في مكة حتى قدم إليها إسماعيل عليه السلام وصاهرهم، وأقدم ما ذكرته العرب أن إسماعيل عليه السلام لما نزل بمكة، كان فيها بقية من جرهم، فتزوج إسماعيل منهم، وتعلم العربية منهم وتنازل فيهم.

3- الطبقة الثالثة:

وهم العرب المستعربة وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وطنهم الأول مكة المكرمة وهم أصل ربيعة وكنانة وقريش، وهذه القبائل كانت متحدة، ثم ابتعدت وتفرقت بحثا عن الكأ والعيش ونظرا لضيق المنطقة، ظهرت خلافت أدت إلى نشوب الحروب بينها، وكانت نتيجة ذلك تباعد واختلاف لهجاتها، واتساع الهوة بينها. ونخص بالحديث قبيلة قريش، وهي من أبناء فهر بن مالك بن النضر بن

كنانة بن خزيمة بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ومن أبرز زعمائها: قصي بن كلاب الذي أخذ البيت الحرام من خزاعة الذي أخذته من جرهم، إذ نشأ وشب عند أخواله بني قضاة ثم جاء إلى مكة وتزوج من بنت خليل القضاعي الذي كان سيد مكة، وقسم قصي بن كلاب قريشا إلى قسمين هما الظواهر والبطاح ويقصد بالبطاح البطون التي تسكن مكة نفسها، ويحتكر رجالها التجارة والوظائف الكبرى، ففيهم التجار وأصحاب الأموال، وهم بنو عبد مناف وبنو عبد الدار...، أما الظواهر فهم الذين يسكنون أطراف مكة ومنهم بنو محارب والحارث بن فهر وهاشم بن عبد مناف، وهو أول من سن رحلتي الشتاء والصيف ومنه ظهر بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، وبهذا نكون قد توصلنا ولو باختصار شديد إلى أصل سكان الجزيرة العربية ومنها مكة.

2- مراحل نشأة اللغة العربية:

تعتبر اللغة العربية إحدى اللغات السامية نسبة إلى العرق السامي، تشعبت من لغة واحدة، لكن لما خرج الساميون من مهدهم وتكاثر عددهم، تشعبت اللغة الأم إلى لهجات، وبمرور الزمن، وتأثير البيئة، أصبحت كل لهجة مستقلة عن أخواتها، فاللغة العربية من بين هذه اللغات التي عرفت تطورات متتالية، فلم تصلنا على هذه الهيئة التي نعرفها نحن في أيامنا، إلا من خلال مرورها بسلسلة من المراحل، كان أهمها:

2-1 المرحلة الأولى:

تسمى هذه المرحلة بمرحلة اختلاط الحميرية اليمنية بالمضرية العدنانية، فلغة العرب على تعددها واختلافها، ترجع إلى لغتين أصليتين: لغة حميرية في الجنوب، ومضرية في الشمال، وبين اللغتين اختلاف ظاهر، وإن كانتا من أصل واحد، إذ قال (أبو عمرو بن العلاء): "ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا، فهو يحسن بأن هذا اللسان اليمني هو لسان عربي، إلا أنه عربية أخرى غير عربية القبائل المستعربة، ولم تكن كلمة (لغة) ترادف في ذلك الزمان بعد كلمة (لسان) فسامها لسان" أي لغة حمير، واليمن لا علاقة لها في الظاهر باللغة المضرية، ألا أن ذلك لم يمنعهم من التفاهم والتواصل، ولم تكن اللغتان في معزل عن بعضهما، بحيث إن القحطانيين رحلوا عن ديارهم بعد السيل العرم، جزاء لكفرهم بما أنعم الله عليهم، فأرسل إليهم السيل، فهدم سد مأرب وأتلف الزرع وخرب الكثير من مواردهم الفلاحية، وذلك ما ذكره عز وجل في القرآن الكريم: " فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين

ذواتي أكل خمط وأثل وشيئ من سدر قليل" (سبأ 16) فاتجهوا إلى شمال الجزيرة العربية، فنفرقوا باحثين عن مأوى لهم، كما في قوله تعالى: " فقالوا ربنا بعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذل لآيات لكل صبار شكور" (سبأ 19)، وكان القحطانيون قبل السيل يهاجرون إلى الشمال طلبا للتجارة والغزو والتوسع، وذلك يدل على وجود احتكاك بين اللغتين، وبمرور الوقت أخذت الدولة الحميرية تزول بتغلب الأحباش على اليمن من جهة وتسلط الفرس عليها من جهة أخرى، وكان العدنانيون على نقيض هؤلاء فقد تهيأت لهم أسباب النهضة والوحدة بفضل الأسواق التجارية والحج، ففرضوا لغتهم وأدبهم على حمير المغلوبة، لكننا هنا لانقول بأن اللغة العربية الفصحى هي لسان مضري محض، بل إنها قد تأثرت باللغات الشمالية، وفي هذا الصدد يقول الباحث (محمد زغلول سلام): "حركة اللغة قد ساءرت حركة القبائل، والأصول المضرية أو العدنانية اشتركت في لغة واحدة، هي اللغة الشمالية وتلاقت معها الشعوب اليمنية، وتعاملت معها، ونشأ من هذا كله اللغة الفصحى". فاللغة العدنانية المضرية أكثر ثقافة وأدبا، وذلك ما سمح لها أن تدخل في صراع مع أخواتها من اللغات السامية حتى قضت عليها، فانتشرت في أصقاع الجزيرة العربية.

2-2 المرحلة الثانية:

تسمى بمرحلة ظهور اللهجات القبلية، إذ كان للقبائل العربية لهجات مختلفة الفروع، متحدة الأصول، وذلك بعد أن تفرقت وانتشرت في شبه الجزيرة العربية بحثا عن الماء والكأ، ولا ريب أن ذلك يحدث حينما تتكمش مساحات الكأ ولا تعود الصحاري قادرة على إطعام أهلها، فيفيض سكانها على الأقاليم الزراعية المجاورة، بالإضافة إلى الخلافات التي تنشب بينها بسبب العصبية القبلية، ومن ثم نشأت لغات كثيرة، بحيث إن اللغة مهما كانت إذا انتشرت في مناطق واسعة ويكثر المتكلمون بها، يستحيل عليها الحفاظ على وحدتها أمدا طويلا فلا تلبث أن تتشعب إلى عدة لهجات، ولم تفلت العربية من هذا القانون، فقد انقسمت منذ أقدم عصورها إلى لهجات كثيرة يختلف كل منها عن الأخرى في كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات، واختصت كل قبيلة بلهجة من هذه اللهجات، نذكر منها: -- لهجة ربيعة؛ التي يجعلون فيها مثلا كاف الخطاب في المؤنث شيئا: رأيتكش - عليكش... وذلك ما يعرف بالكشكشة.

- لهجة قيس أو تميم يجعلون فيها الهمزة المبدوء بها عينا، فيقولون: عنك بدلا من إنك، وعسلم بدلا من أسلم...

- لهجة هذيل ويجعلون الحاء فيها عينا، كقولهم: عي بدلا من حي، وعمل بدلا من حمل... وذلك ما يسمى بالفخفة.
- لهجة قضاة ويجعلون فيها الياء المشددة جيمًا، كقولهم: تميمج بدلا من تميمي... وذلك ما يعرف بالعججة.

2-3 المرحلة الثالثة:

وهي مرحلة ظهور اللغة المثالية المشتركة، إذ تتكون إلى جانب اللغات القبلية المختلفة لغة مشتركة بينها جميعا، وهي خالية من العيوب اللهجية، التي أشرنا إليها أعلاه والتي تتميز بها اللهجات الأخرى، نشأت اللغة المشتركة نتيجة للاحتكاك الذي حدث بين الناطقين بهذه اللهجات أثناء التجارة وتأدية المناسك، وكانت العرب تأخذ من بعضها البعض بالمخالطة والمجاورة، فانصهرت فيها جميعا، وبرزت هذه اللغة المشتركة في أحسن بروز من خلال القرآن الكريم، ومن خلال ما وصلنا من الأدب العربي الرفيع من شعر وخطابة، وقد طغت على تلك اللغة المثالية لهجة قريش التي هي أقل اللهجات العربية عيوبًا وأكثرها فصاحة وبيانا، بحيث اشتملت على خصائص كثيرة من لهجات القبائل العربية، وساعد على ذلك عدة عوامل أهمها:

أ العامل الجغرافي: ويقصد بذلك الموقع الاستراتيجي لمكة المكرمة، إذ تقع في منتصف طريق القوافل

بين اليمن والشام، في واد من أودية الشارة على شكل سهل منبسط، بحيث توجد على طول الطرق التجارية عبر الصحراء أماكن تتخذها القوافل التجارية مواطن لراحتها، ومكة هي أحد هذه المواطن لوفرة المياه فيها مثل بئر زمزم، كما كانت الأوضاع الأمنية مستقرة بمكة إذ بها يوجد البيت الحرام الذي أكسبها حرمة قدسية، تحرم فيها كل أنواع العنف والقتل، الأمر الذي سمح لها أن تكون أكبر مركز تجاري يتوافد عليه العرب وغير العرب من كل فج وصوب، وكانت للعرب لهجات متباينة مما سمح لها أن تحتك ببعضها البعض، وكان أهل مكة يلتقون الألفاظ الفصيحة ويضمونها إلى لهجتهم، إلى أن ارتفعت قريش في الفصاحة عن كل عيوب اللهجات الأخرى، وهذا ما عبر عنه (جلال الدين السيوطي) في المزهري: "كانت العرب تحضر المواسم في كل عام وتحج البيت الحرام، فكانت قريش تستمع إلى لغات العرب الأخرى، فما استحسوه تكلموا به، وما لم يستحسوه لم يدخل لغتهم، هكذا خلت العربية الفصحى من قبيح الألفاظ..."

ب - العامل الديني:

فرضت قريش سيادتها على مكة بعد أن جمع (قصي بن كلاب) شملها ووحد بطونها واهتم بعمارة البيت الحرام الذي كانت العرب تقصده ليؤدوا مناسكهم، ويزوروا أصنامهم، فأصبحت مكة أكبر مركز ديني للوثنية ، وقد كان لقريش الفضل الكبير في توجيه وتسيير الحجيج وتحديد الأشهر الحرم الأربعة التي يحرم فيها القتال، وكانت هذه الأشهر فرصة لانتقال القبائل إلى مكة للحج، والأشهر الحرم عند قريش هي: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، صفر. واكتسبت قريش احترام القبائل لها، بل ألوف القبائل الوافدة إلى مكة، وتعاملت مع قريش واحتكت بها، وفي هذا الصدد قال (ابن خلدون): "وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها، إذا أنتهم الوفود من العرب، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى... وسلاتقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب"

ج - العامل الاقتصادي:

تقام في مكة وغيرها أسواق مثل: عكاظ، وحجز، ودوامة الجندل على اختلاف مواقعها ومواسمها، وكانت تجتمع فيها القبائل العربية من مختلف الأعراق والمواطن بين يمنية وجنوبية ونجدية وشامية، وبين عرب وغير عرب من أحباش وفرنس وروم إلى هذه الأسواق يتجهون ويقيمون فيها نحو شهر كامل يبيعون ويشتررون ويقضون مهامهم وحوائجهم، ثم يأخذون في إلقاء الخطب وإنشاد الشعر فيتفاخرون ويتنافسون على مسمع الجماهير الغفيرة، وفي ذلك المحفل جماعة من القرشيين يحكمون ويقضون بين الشعراء، فكانت تلك الأسواق بالفعل مواسم أدبية وثقافية يحضرها كبار الشعراء، كما أنها أدت وظائف كثيرة مثل الفصل في الخصومات بين العشائر والقبائل وعقد معاهدات التحالف وحسن الجوار ودفع الديات لأهالي المقتولين، فكانت التجارة في يد قريش وأصبحوا أثرياء للا يتاجرون في الأسواق المحلية فقط إنما انتقلوا بتجارتهم إلى مختلف بقاع الجزيرة العربية ، ويقومون برحلتين في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام كما أخبرنا به عز وجل في قوله: " لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت إيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" (قريش 1-4) وبفضل هذا النشاط التجاري أصبحت الثروة المادية بين أيدي القرشيين فازدهرت حياتهم الاجتماعية وارتقت معها لغتهم، واتسع نفوذهم ونمت لهجتهم وسادت على غيرها من اللهجات فأصبحت لغة عامة للعرب.

د - العامل السياسي:

كان لموقع قريش وما لها من ثروة مادية أثر بالغ في ازدياد نفوذها السياسي بين القبائل، بالإضافة إلى قوة زعمائها وقدرتهم على حل التخاصمات التي تقع بين القبائل، فبفضل ذكاء هؤلاء الزعماء وفطنتهم كانوا دائما يتخذون الحياد بين القوى المتصارعة العظمية كالفرس والروم، وكذلك وضعهم الأشهر الحرم حفاظا على مصالحهم التجارية الداخلية والخارجية، وذلك ما سمح للقبائل الأخرى أن تأتي إلى مكة في أمن وسلام، ولهذه الأشهر أهمية بالغة لأنها بمثابة هدنة تجد فيها العرب فرصة للتحرك والاتصال والتبادل مطمئنين، وحفز خطر القتال والصراع على مصالح مكة ذوي النفوذ من قريش إلى العناية بهذه الأشهر الحرم، وزادت واقعة الفيل في نفوذ القرشيين حينما أقبل الأحباش على تهديم مكة، فأرسل الله طيرا أبابيل، أصابتهم بأذى بالغ فتراجعوا عن قرار هدمها، وزاد هذا الحدث مكة كرامة وتقديسا.